أصحاب الكهف

خرج أهْلُ «أفْسُوس»[1] في يوم عِيدهم، يحتفلون بأوثانهم، ويتقَرَّبونَ لأصنامهم، ولكن شاباً من أشرافهم، وأكرم بيوتهم، لم تطمئنَّ نفسُه إلى ما رأى، ولم يستَرِحْ عقلهُ إلى الآلهة التي يعبدون، فشكَّ وارتاب، واضطراب تفكيره وتحيَّرَ. ثم انسلَّ من بين جموعهم، وخرج مختفياً من صفوفهم، حتى انتهى إلى شجرةٍ جلس إليها، ساهماً مُطْرقاً، مُرْتاباً متحيراً.

وما لبثَ أن تهَادَى إليه آخر، مِمّنْ ذهب مَذْهَبه في شكه وحيرته، واضطرابه وارتيابه، وممن أشبهه في شَرَفِ عُنصره، وكرم نِجَارِه[2]، ثم آخر وآخر، حتى انتهى عددهم إلى سبعة، وما أسرع ما تعَارفَتْ أرواحُهم، وتعانقت آراؤهم، وألَّفَتْ بينهم فكرةٌ واحدة؛ وإن لم يكُن بينهما نسبٌ جامع، أو رَحِم ماسَّة. وأعلنوا لأنفسهم شَكَّهم وارتيابهم، وإنكارهم لآلهة أقوامهم، ثم جالوا في رحاب الكَون ببصائرهم النافذة، وفِطَرهم السليمة، حتى ضاءت نفوسُهم بنور التوحيد، وهُدُوا إلى مُنشىء الخلق وسِر الوجود، واستراحوا إلى هذا الدين واطمأنُّوا إليه، واتفقوا على أن يكتُمُوه بين جوانحهم، ويستروه في أعماق نفوسهم؛ إذ كان الملك وثنياً مُمْعِناً في الوثنية، مشركاً ظَهِيراً للمشركين.

وظل كل واحد يخوض فيما يخوضُ فيه القوم، ويضطربُ فيما يضطرب فيه الناس، حتى إذا ما خلا بنفسه، واجتمع مع قلبه، اتجه إلى الله عابداً مُصَلياً، ومنزِّهاً ومقدِّساً، حتى إذا كانت إحدى ليالي اجتماعهم، وانتظام عَقْدهم، قال أحدهم في صوتٍ خفيض وحَذَرٍ مريب: لقد سمعتُ يا رفاقُ بالأمس خبراً لو صَدَق رَاويهِ ـ ولا أخَاله إلا صادقاً ـ فإن فيه إفسادَ دِيننا أو ذهابَ حياتِنَا، سمعتُ أنّ الملكَ قد علم بأمرنا، وافتضحَ

---

(١) أفسوس: بلد بثغور طرسوس.

(٢) النِّجار: الأصل والحسب.

عنده عقيدتُنا ودينُنا، فثار ثائره، وهاج هائجه، وتوعَدَنا شرًّا إن لم نَصْبَأ[١] عن هذا الدين الذي أُشْرِبَته نفوسُنا، وانسجَمَ مع عقولنا وتفكيرنا، وإنه يوشك أن يطلعَ علينا الغدُ فإذا جميعنا في حَضْرَته، وبين وَعْدِه ووعيده، وسيفِهِ ونِطْعِه[٢]، فتدبّرُوا أمركم واحْزمُوا رأيكم.

قال الثاني: هذا خَبَرٌ كُنتُ سمِعْتُ به من قبل فحسبتهُ من إرجاف[٣] المُرْجِفين وتأويل الجاهلين، ولكن يظهرُ أنه استفاض وذَاعَ، حتى دلّ على صدقِهِ، أو إمكان وقوعه: وما أرى إلا أن نثبَتَ على ديننا، ونصمد لاضطهاد يُرَادُ بنا؛ ومحال أن نرجع إلى هذه التماثيل التي يعبدونها، بعد أن عرفنا فسادَها وبُطْلانها؛ ولسنا براجعين عن عبادة الله، ومع مطلع شمس كلِّ يوم دليلٌ على وجوده، وفي كل سَبْحة من سبحات التفكير شاهِدٌ على عظمته.

وصدقت الإشاعاتُ، وصحّتِ الأخبار، وانتظم جمعهم أمام الملك؛ بعد أن انْتُزِعُوا من منازلهم، وأُخِذُوا من بين أهليهم.

قال لهم: لقد حاولتم سَتْرَ أمر فلم تفلحوا، وجاهدتم في كتمانِ دينٍ ولكنكم لم تنجحوا؛ وقد انتهى إليّ عُجَرُكم وبُجَرُكم[٤]؛ وخُبْرُكم وخَبَرُكم، ووصل إليّ أنكم صَبَأتم عن دين الملك والرعيّة، إلى دين لا أدري كيف هبط عليكم، أو وصل عِلْمهُ إليكم، وقد كان يَهُونُ عليّ أن أترككَم تَهيمون في دينكم، وأن أُلْقِي حبْلكم على غارِبكم[٥]؛ لولا أني علمتُ أنكم من أشراف قومِكم، ومن أوساط عشائركم، وتوشك العامة ـ لو عَلِمَتْ بأمرِكم ـ أن تَرِدَ شريعتكم، وتدخلَ دينكم، وتَتَقبَّل طريقتكم، وفي ذلك ما فيه من إفساد الملك، وانتقاضِ حَبْل الأمان.

ولستُ بمُعَجِّلٍ لكم العذابَ، أو مُوقع عليكم العقابَ، حتى تفكّرُوا فيما أنتم

---

(١) صبأ: ترك دينه ودان بآخر.

(٢) النطع: بساط من الجلد كثيراً ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل.

(٣) الإرجاف: الخبر الكاذب المثير للفتن والاضطراب.

(٤) العُجر جمع عُجرة: موضع السمن، البُجر جمع بجرة وهي السرة يقال: ذكر عجره وبجره: أي عيوبه ما أخفى منها وما أبدى.

(٥) حبلك على غاربك: أي أمرك متروك إليك واذهب حيث شئت.

مُـقْدِمون عليه، فإما رجوعٌ إلى مِلّتنا وإذعانٌ لما فيه الناس، وإمّا أن يرى الرّائي فإذا أمامَه رُؤوسٌ مُلْقاة، وأشلاء ممزّقة، ودِماءٌ منكم تَسِيل.

وربط الله على قلوبهمْ، وأيّدَهم في إيمانِهِمْ، فقالوا: أيُّها الملك، إنّ هذا الدينَ لم ندخل فيه مقلِّدين، ولم نَعْتَنِقْه مُكْرهين، ولم نَسِرْ فيه جاهلين، دعتنا إليه الفِطْرَة فلبَّيْنا، وأضاء لنا العقلُ وفي ضَوْئه سِرْنا؛ هو الله الأحد، لن نَدْعُو من دونِهِ إلٰهاً، أما قومُنا هؤلاء فقد عبدُوا أصنامَهُمْ جاهلينَ مُقَلدِين؛ لم يأتوا عليها بسلطان؛ ولم يَدُلوا عليها ببرهان؛ هذا ما انتهى إليه عِلْمُنا ورأينا، فاقْضِ ما أنتَ قاضٍ.

قال الملك: اذهبوا اليومَ على أن تأتوني في الغدِ أنظُرُ في أمركم؛ وأفْصِلُ في قضيتكم.

وخلصوا إلى أنفسهم يتشاوَرُون فيما يفْعلون، ويُجِيلون قِدَاحَ الرأي كيفَ يصنعونَ! قال واحد منهم: أما وقد عَرَف الملكُ أمرنا فلا مُقَامَ لنا بين وَعْدِهِ وَوَعِيده، وأطماعه وتهديده، ولْنَفِرَّ بديننا إلى ذلك الكهْفِ من الجبل، فإنه قد يكون على ظَلاَمه وضيقه أفسحَ صدراً، وأطيبَ مكاناً من هذه الأرض الوسيعة التي لا نستطيعُ أن نعْبُدَ الله فيها كما نريد، وَأنْ نَجْهَرَ بديننا كما نعتقد، ولا قَرَارَ في مكان نرَاد فيه على دين لا نطمئنّ إليه، ولا كرامةَ في وطنٍ نُقْهر فيه على رأي لا نعتقده.

وأصبَحُوا جميعاً يحملون زادَهُمْ، مُفَارقين أوطانهم، مهاجرين بدينهم، ولمحهم كلبٌ في الطريق، فسارَ في إثرهم، وتَعَلّقَ بهم، فلم يَرَوْا بأساً في أن يرافقهم يَصْحَبُهم أو يحرسهُمْ.

وما زالوا في سيرهم حتى انتهَوْا إلى الكهف، وهناك وجدوا ثماراً فأكلوا، وماءً فشربوا؛ ثم اضطجعوا قليلاً ليُبْرِدُوا أقدامهم، ويُعيدوا ما ذهبَ من عافيتهم في أثناء سيرهم، ولكنهم ما عَتَّمُوا[1] أن أحَسُّوا إغفاءةً خفيفة، داعَبَتْ جفونهم، ثم أسلمتْ رؤوسهم إلى الأرض في نومٍ عميق.

* * *

(١) ما عَتَّم: ما لبث.

وتعاقَبَ ليل إثر نَهار، ومضى عامٌ وراء عام، والفِتْيةُ راقدونَ، والنومٌ مضروبٌ على آذانهم، والكَرَى معقودٌ بأجفانهم، لا تزعجهم زمجرةُ الرِّياحُ، ولا يوقِظُهم قَصْفُ الرُّعُود، تطلعُ الشمس فتنفذ إلى الكَهفِ من كُوَّته[١]، فتمنحه الضوء والحرارة، ولكن أشعتها لا تصلُ إليهم؛ وتغرُب فتميل وتبتعد، تحقيقاً لما أراد الله من حفظ أجسادهم وبقاء جُثثهم، وَلو اطلع مُطّلعٌ عليهم لرآهم يتقلبون مرةً ذات اليمين وأخرى ذات الشمال، وقد تغيرت حالهم، يبعثون الرعب فيمن يَرَاهم، والهولَ فيمن يطلع عليهم.

ودخلت سنةُ تسع وثلثمائة منذ نومهم، انتبهوا بعدها، وهم لا يكادون يمسكُون نفوسهم من الجوع، أو يجمعون أعضاءُهمْ من التعب، ظانِّينَ أنَّ الزمنَ لم يمض بهم، وأن عجلة التاريخ واقفة عند كهفهم.

قال واحد منهُمْ يسأل: يُخَيلُ إليَّ أنَّ ساعاتٍ طويلة رقدناها، فما تَظُنون يا رِفاق؟

وقال الثاني: ربما نكُون قد لبثنا يوماً، فإنّ هذا الجوعَ الذي نُحِسُّه، والتعب الذي نشعُرُ به لَيُؤْذِن بما أظنَّ.

وقال الثالث: نحن رقدنا في الصباح، وهذه الشمسُ لم تَطْفُل[٢]؛ فما أظن إلا أننا قد لبثنا بعضاً مِنْ يوم.

وقال الرابع: دعُونا من تساؤلكم: فالله أعلمُ بما لبِثتم، ولكنني أحِسُّ الجوعَ شديداً، كأني لم أطعم منذ ليال، فليذهب واحدٌ منكم إلى المدينة، يلتمِسُ لنا طعاماً... ولْيكُنْ حَذِراً لبيباً، فَطِناً أريباً[٣]، حتى لا يعرفهُ أحد، ولا يفطن إليه إنسان، إنهُم لو ظَهَرُوا علينا، وعرفُوا مكاننا يقتلوننا أو يَفْتِنُوننا في ديننا.

فخرج إلى المدينة واحد منهُمْ يلتمسُ الطعام، وهو خائف حذر؛ ودخل أفسوس، وما رَاعهُ إلا تغير في معالمها، وانقلاب في مبانيها: هذه خرائب أضحت قصوراً، وتلك قصورٌ أمست خرائبَ وأطْلالاً، وتلك وجوهٌ لم يعرفها، وصُوَرٌ لم يألَفْها:

أمّا الديارُ فإنها كديَارهم ... وأرى رِجالَ الحيِّ غَيْرَ رِجاله

---

(١) الكوة: الخرق في الجدار يدخل منه الهواء والضوء.

(٢) طفلت الشمس: مالت للغروب.

(٣) الأريب: صاحب الدهاء والفطنة.

وتحيّرت نظراتُه، وكثرت لفَتَاتُه، وظهر الاضطراب في مشيته، والوجومُ في حَيْرته، وألحّ عليه الاضطرابُ، وتتابع الوُجوم، حتى لفت الناسَ إليه.

قال له أحدهم: أغريب أنْتَ عن هذا البلد؟ وفيمَ تتأمّل؟ وعَمَّ تبحث؟ قال: لست غريباً، ولكنني أبحثُ عن طعام أشتريه، فلا أرى مكانَ بَيْعِه، وأخذ الرجلُ بيده حتى انتهى به إلى صاحب طعام، وأخرج صاحبُ الكهف دَرَاهِمه، ونَقَدها التاجر، وما راع التاجر إلا أن رأى نقوداً ضُرِبت من نحو أكثر من ثملاثمائة عام، فحسب أنه عَثَر على كَنْزٍ، وأنَّ من وراء دراهمه دراهمَ كثيرةً، وأموالاً عظيمة، فاجتمع الناسُ من حوله، ودَلَفُوا إليه من كل مكان.

فقال: يا قوم، ليس الأمر كما زعمتم، وليست هذه النقود كما توهَّمتم، وإنما هي دراهم قد وقعت لي في بعض معاملتي مع الناس بالأمس، وأنا أشتري بها طعامي اليوم، فما يدعوكم إلى الدهشة؟ وما يدفعكم للافتراء عليّ بما تظنُّون؟! ثم هَمَّ بالعودة، خشية أن يفتضِحَ أمرُه، أو تظهر حقيقة حاله، ولكنهم عادوا فرَفَقُوا به، وتلطَّفوا معه في القول، وحاوروه في الحديث، وما كان أشدّ ذهولهم حينما علموا أنه أحدُ الفِتْيَة الأشراف، الذين هَرَبُوا من تسع وثلاثمائة سنةٍ من مَلِكهم الجائر الكافر، وأنهم هم الذين ـ فيما سمعوا ـ تطلَّبَهُم الملك فلم يظفَرْ بهم، ونشدهم[1] فلم يَهْتَدِ إليهم، وما كان أشد خوف الرجل حينما علم أنهم فَطِنُوا لأمره، وعرفوا قِصّته، فخاف على نفسه وإخوانه، وهمّ بالهروب.

قال أحدهم: لا تُرِع يا هذا، إن الملك الذي تخافُه قد مات من نحو ثلاثمائة عام، وإن الملكَ الذي يحكُمُ الآن مؤمِنٌ بالله كما تؤمنون، وأما أنتَ فأين بقيّةُ صَحْبِك؟

فأدرك الرجل حقيقة حاله، وعرف تلك الفَجْوَة من التاريخ التي تفصلُ بينه وبين الناس، فهو الآن لا يَعْدُو أن يكونَ شبَحاً يمشي، أو ظلاًّ يتحرك، ثم قال لمن يحدّثه: دَعُوني أذهبْ إلى صحبي في الكهف، أحدِّثهم عن شأني وشأنهم، فربما يكونُ قد طال انتظارهم واشتدَّ قلقهم.

وسمع الملكُ بأمرهم، فخفَّ إلى لقائهم، وسعَى إلى كَهْفِهم، فرأى فيهم قوماً أحياءً تُشرِق بالحياة وجوهُهم، وتجري الدماءُ في عروقهم، فصافَحهم وعانَقهم، ودعاهم

(١) نشد الضالة سأل عنها وطلبها.

إلى قَصْرِه، والإقامة في داره، فقالوا: وما نَبْغِي بالحياة، وقد مات الحفِيدُ والولد، وعَفَتِ الدارُ والسَّكَن، وانقطع ما بيننا وبين الحياةِ من أسباب؟ ثم توجَّهُوا إلى الله طالبين أن يختارَهم لجِوَارِه، وأنْ يشملَهم برحمته، وما هو إلا ارتدادُ الطرْف حتى وقعوا أجساداً لا حياةَ فيها.

أما القومُ فقالوا: لعلَّ الله أعْثَرنا عليهم، لنعلمَ أنَّ وعْدَ الله حق، والبعث صدق، والساعة آتية لا رَيْبَ فيها، ثم تنازعوا أمرهم بينهم، ﴿فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾[1].

(١) سورة: الكهف، الآية: ٢١.